تمهيد

نُشرت هذه السلسلة من المسح الدراسي الإسلامي منذ نحو أربعة عشر عاماً بهدف «إعطاء القارئ المثقف معلومات أكثر مما يمكن أن يجد في الكتب العادية الرائجة». كانت الفكرة العامة هي أن كل بحث يجب أن يمسح مسحاً شاملاً بوصفه جزءاً من الحقل الضخم الذي تغطيه الدراسات الإسلامية، لا بمجرد تقديم إطار عام لما هو معروف ومقبول قبولاً عاماً، بل بالإشارة أيضاً إلى النقاط التي يستمر فيها النقاش العلمي. كان هناك رغبة في إضافة أسماء مراجع، يفضّل أن يكون عليها شروح في الحاشية؛ لإرشاد القارئ الذي يرغب في الاستطراد في دراساته. كان التقدم في العمل على نشر السلسلة أبطأ من المأمول، لكن إذا حكمنا من القبول الذي حظيت به الكتب المنشورة حتى الآن، فإننا نستطيع أن نقول: إن الهدف العام قد تحقق جيداً. لم نستطع بعدُ أن نشمل في السلسلة جميع الكتب التي كنا نود أن نشملها، ثم إننا أضفنا كتباً لم نكن قد فكرنا فيها قبلاً.

يسعدنا خاصة أن نضيف هذا الكتاب الحادي عشر إلى السلسلة، حيث إنه لا يوجد أي كتاب حديث عن الموضوع في أي من اللغات

obeikandl.com

الأوروبية. يضع الوضع الحالي للمنحة الدراسية قيوداً معينة على معالجة الموضوع، كما سيشرح الكاتب؛ وعلينا هنا أن نتبع حكمه على الأمور، حيث إنه يعرف أكثر من أي شخص آخر مراجع البحث بكل تنوعها وضخامتها. لكن على الرغم من القيود، يعدّ هذا الكتاب إسهاماً مهماً في الدراسات الإسلامية، ثم إن صفته المرجعية تجعلنا نوصي به أيضاً لأولئك المهتمين بتاريخ الطب.

كما في الكتب الأخرى من هذه السلسلة، فإن ترجمة الكلمات العربية مأخوذة من الطبعة الثانية من موسوعة الإسلام (لندن، 1960، ومستمرة) مع ثلاثة تعديلات تتعلق بقراءة الحروف العربية باللغة الإنكليزية.

- دبليو. مونتغومري وات.

obeikandl.com

المحتويات

قائمة المصورات..... 9

المقدمة 11

الفصل الأول: الظروف الطبية في الجزيرة العربية قبل الإسلام وفي العهد الأموي 17

الفصل الثاني: عصر الترجمات..... 37

الأعمال اليونانية.....27

الأعمال السريانية..... 37

الأعمال الفارسية..... 38

الأعمال الهندية.....45

العواقب 46

الفصول الغريبة 52

الاجتهاد في المصطلحات العلمية.....55

أسلمة بعض التعابير اليونانية 60

obeikandl.com

استعادة النصوص اليونانية 62
الفصل الثالث: مسح دراسي لتاريخ الطب العربي..... 77
تأثير الطب العربي في الغرب..... 92
الفصل الرابع: علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح..... 97
العناصر..... 98
الأمزجة..... 100
الأخلاط الأربعة..... 101
القوى..... 104
الروح..... 106
استقراء..... 108
حركة الدم..... 109
التشريح..... 116
الفصل الخامس: علم الأمراض..... 121
الفصل السادس: قابلية انتقال الأمراض والطاعون..... 143
الفصل السابع: الأغذية والأدوية 157
الأدوية 167
الفصل الثامن: الطب والسحر..... 173
الطب والتنجيم 178

obeikandl.com

قائمة المصورات

[1] نظام الأوردة وفق المخطوطة الفارسية: 2296, f.12a (مكتبة وسجلات مكتب الهند) 43

[2] صفحة العنوان لكتاب القانون في الطب لابن سينا المطبوع بالخط العربي في روما عام 1593 في الطبوغرافيا الطبية..... 44

[3] العملية القيصرية وفق المخطوطة الشرقية 101، (مكتبة جامعة إدنبرة) 67

[4] بداية نص عن «اليرقان» لروفوس من إيفيدوس وفق مخطوطة عربية فريدة رقم: 2326,Or.Oct.104,f.25v/26r (المكتبة الوطنية بروتسيشر كولتوربيستتس، برلين الغربية) 68

[5] بعض الأدوات الجراحية التي استخدمها أبو القاسم الزهراوي، مخطوطة هنتنغتون 156 (مكتبة بودليان، أوكسفورد) 136

[6] صيدلية عربية من مخطوطة لديوسقوردس. مخطوطة nr.57.51.21 (المتحف المتروبولتيني للفنون، نيويورك) 137

[7] العنب من مخطوط لديوسقوريدس. مخطوطة أحمد 111، 2127, f.252v (متحف توبكابي ساراي، إسطنبول) 158

obeikandl.com

[8] الخروج من جذور اليبروح. وفق كتاب طب لاتيني .Codex Ser
nov.2644,f.40r (مكتبة النمسا الوطنية) 159

المؤلف شاكر للمكتبات والمؤسسات المختلفة؛
لسماحها بإعادة طباعة الصور

obeikandl.com

المقدمة

يحمل الكتاب الذي أقدمه إلى العامة هنا عنوان «الطب الإسلامي». إنه وصف للنظام الطبي الذي أُدخِل إلى البلاد العربية في القرن التاسع للميلاد، وتمت الممارسة وفقه على مدى العصور الوسطى حتى العصور الحديثة. يعرف هذا النظام عامة باسم «الطب العربي». لكن بعض الأطباء، ومن بينهم بعض ألمع الأطباء مثل الرازي والمجوسي وابن سينا، كانوا فرساً لا عرباً. ومن ناحية أخرى، كان هناك كثير من الأطباء المسيحيين مثل حنين بن إسحاق، أو اليهود مثل الميمون. لكن ديانتهم ليست مهمة في هذا السياق، شأنها شأن أصولهم العرقية. عاش جميع هؤلاء العلماء في حياض الثقافة الإسلامية، وساعدوا ببذل أقصى جهودهم في صياغة نمط هذه الثقافة وإعطائها صبغتها الخاصة. لذلك عندما نتكلم عن «الطب الإسلامي»، فإننا نتكلم عن الإسلام بصفته قوة ثقافية؛ إننا ننظر إلى ثقافة قد امتصت داخلها عدداً من التيارات المختلفة واحتوتها وطورتها.

لم ينمُ «الطب الإسلامي» على تراب عربي، بل كان في الواقع هو طب الحقبة اليونانية الأخيرة مصوغاً باللغة العربية في جنوب البحر الأبيض

obeikandl.com

المتوسط وغربه، بدءاً من القرن التاسع للميلاد. ترك خرق الحاجز اللغوي المحتويات كما هي تقريباً. ينتمي الطب مع الفلسفة والرياضيات وعلم الفلك وعلم التنجيم، فضلاً عن علم الحيوان والكيمياء والجغرافيا والتقنيات لفروع المعرفة التي طبعت العالم العربي الإسلامي بالطابع الإغريقي. كان هذا التوجه الإغريقي الذي حصل آنذاك أحد أعظم التحركات التاريخية العالمية التي لا نزال نشعر بتأثيراتها حتى يومنا هذا. كان فرانسيسكو غابرييلي محقاً عندما قال: «كان الصراع لاحتواء الأفكار القديمة ضمن الإسلام أحد أكثر فصول تاريخ الإسلام الثقافي إثارة»[1]. جرت محاولات عديدة في عدة دراسات لتفسير ظاهرة التوجه الإغريقي هذه، لكن كثيراً من تفاصيلها لا يزال غامضاً. ما زلنا نجهل كثيراً من الحقائق؛ ولا يزال معظم المسألة غير مكتشف.

حفظت لنا النصوص التقليدية في حقل الطب عدداً كبيراً من المصادر، لكن معظم هذه المصادر لم ينقح بعد. تقدّم الأعمال التي نشرت، تقريباً دون استثناء، نصوصاً غير دقيقة لم تخضع للنقد. لذلك، كما قال إدوارد غرانفيل براون منذ 55 سنة: «يجب على طالب الأدب الطبي العربي أن يبدأ بتصحيح وإعادة تنقيح النصوص المطبوعة أيضاً قبل أن يقرأها أو يترجمها»[2]. تجعل هذه الظروف من المستحيل، حتى في يومنا هذا، كتابة تاريخ الطب الإسلامي. لهذا السبب، يعدّ الأدب المتوافر نادراً حتى عندما ننظر إلى مجموعته الكاملة.

يجب علينا إلى اليوم أن نعود إلى كتاب «**تاريخ الطب العربي**» المكوّن من مجلدين، الذي كتبه لوسين ليكليرك (باريس، 1876؛ المعاد طبعه في نيويورك عام 1960). كان ليكليرك يسعى إلى كتابة تاريخ كامل

للطب العربي، كي يظهر أصله وصفاته ومؤسساته وتطوره وانحداره. لكنه أدرك أنه قادر فقط على تقديم تاريخ «خارجي» أو «فهرسي». اعتمد اعتماداً كبيراً على فهارس الكتب العربية والأعمال الفهرسية، أي على **فهرس ابن النديم**، **وطريق الحكماء** للقفطي، **والعيون** لابن الأصيبع، حيث أعاد كتابة محتوياتها في قوائم طويلة جافة. لا تزال أجزاء من كتابه مهمة اليوم، وهي الأجزاء التي تصف نتائج دراساته للنصوص التي أجراها في الفهرس القومي في باريس وإسكوريال.

هناك كتاب قيّم حول تلك الحقبة، وهو كتاب **الطب العربي**، الذي كتبه إدوارد غرانفيل براون المتقدم ذكره[3]. اتخذ براون من بعض الأعمال الأساسية موضوعاً لأبحاثه: **جنة الفردوس** لابن سهل الطبري، كتاب **الحاوي** للرازي، كتاب **الملاكي** لابن العباس المجوسي، **القانون** لابن سينا، **الذخيرة** لإسماعيل الجوراني المكتوب بالفارسية.

في فصل الافتتاح الذي يصف فيه براون بداية الطب عند العرب، قَبِلَ تأكيدات عن الأدب الطبي العربي لم تخضع للنقد التاريخي.

يتوافر للقارئ باللغة الإنكليزية أيضاً كتاب **التاريخ الطبي لفارس والخلافة الشرقية من الأيام الباكرة حتى عام 1932 للميلاد**، الذي كتبه سيريل إلغود (كامبردج 1951). هذا عمل شامل يتعامل مع كل من الطب الفارسي والحقبة الكلاسيكية للطب العربي أو الإسلامي. يعاني الكتاب بعض العوز في وسائل العمل التاريخية، ولا يمكن الاعتماد عليه دائماً في التفاصيل، لكن المعلومات الدقيقة التي يقدمها عن تطور الطب الفارسي في القرون الأخيرة قيّمة جداً.

obeikandl.com

ظهر في عامي 1970 و1971 كتابان يحاولان تقويم أدب الطب العربي عبر وجوده في النصوص والمقتطفات. أحد الكتابين هو «**الطب في الإسلام**» لكاتب هذا الكتاب (مانفرد أولمان)[4]، والثاني هو المجلد الثالث من كتاب «**قصة المدونات العربية**» الذي كتبه فوات سيزغن[5]. بينما يستمر العرض في الكتاب الأول إلى القرن السابع عشر، فإن سيزغن يتعامل مع المدة حتى عام 1040 للميلاد. المادة التي يقدمها سيزغن أشمل إلى حد ما من المادة التي يقدمها أولمان، لكن تبدو هناك مشكلة في تقويمه لتلك المادة وترتيبها التاريخي[6]. كل من الكتابين المذكورين هو أعمال فهرسية يمكن أن تقدم أساساً لمزيد من الأبحاث. لا يتضمن الكتابان تاريخاً لنظرية طبية.

يتوافق هذا الكتاب الصغير مع الحالة الراهنة للأبحاث بتجنبه وضعَ كلمة «تاريخ» في عنوانه. وموضوعات بحثه محدودة. وهذا يعني أنه لن تبحث وموضوعات مثل الجراحة ومؤسسات المستشفيات، ومسائل مثل وضع الطبيب الاجتماعي أو علاقة الطبيب بالمريض أو التعليم الطبي؛ ثم إنه من بين النظريات الطبية الكثيرة المثيرة للاهتمام لا يمكن إلا اختيار القليل منها وتقديمه. لكن يبدو لي أنه من السليم التعامل مع عدد قليل من الموضوعات الوصفية خاصة، وإعطاء الأولوية لكل ما له أهمية بارزة. لذلك وصفت عملية التوجه الإغريقي بتفصيل كبير، وأكدت اعتماد الطب الإسلامي على التقاليد، وأعطيت بعض الوقت لمسألة العلاقة بين الطب المنطقي والسحر وعلم التنجيم. ووصفت ما يعرفه أطباء العصور الوسطى عن علم وظائف الأعضاء الإنساني.

ربما قد يصرف النظام الجاف للنظام الفيزيولجي القارئ المعاصر، لكن على القارئ أن يتعرف هذا النظام إذا كان يريد أن يفهم الأدب الطبي العربي. «الطب الإسلامي» فرع من المعرفة نشأ في مدة زمنية لم تكن تعرف النهضة والتنوير. لذلك يجب الانتباه لعدم قياسها بالمقياس نفسه الذي يقاس فيه تاريخ فروع المعرفة الأوروبية.

كتب هذا الكتاب الحالي عالم في فقه اللغة، ليس طبيباً ولا مؤرخاً. لذلك قد يشعر الأطباء أنه لم يطرح أسئلة تبدو مهمة لهم. لكن الكاتب يأمل أنه لم يزغ كثيراً عن الصواب عندما اضطر إلى التعامل مع موضوعات علمية خارج نطاق علم فقه اللغات أو التاريخ.

كتب هذا الكتاب بناء على اقتراح الأستاذ الجامعي مونتغومري وات، محرر هذه السلسلة. أشكره جزيل الشكر على كل ما بذله لتذليل الصعاب. وأشكر زوجته الدكتورة جين وات، التي ترجمت هذا الكتاب ترجمة ممتازة إلى اللغة الإنكليزية. وأخيراً، أود أن أعبر عن شكري العميق للعاملين في دار نشر جامعة أدنبرة على عملهم الدقيق السليم.

obeikandl.com